اللغة والتنمية في تقارير
المؤسسات اللغوية العربية الرسمية

تقرير الألسكو 2004 نموذجا

د. عبد المالك اعويش
أستاذ اللغة العربية
جامعة القرويين - المغرب

تمهيـــد

هذا العرض هو محاولة لاستجلاء مكانة التنمية في المؤسسات اللغوية وهو بعبارة أخرى يعكس أهم المجالات التي تظهر فيها اللغة كرأسمال يستثمر فعلا في التنمية، إنه قراءة في محتوى التقارير اللغوية وأهم الاهتمامات ومجالات الأولوية عند اللغويين،إنه يتساءل بلغة الاقتصاديين والتجار والشركات وأصحاب رؤوس الأموال : ما العائد من تعليم وتعلم اللغة (العربية) ؟

والتقرير الذي سنعتمده في هذه الدراسة يكتسي أهمية خاصة ذلك أنه أنجز بطلب من المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم التابعة لجامعة الدول العربية، ولا يخفى علينا اهتمام المنظمة باللغة، والجهود التي قام بها مكتب تنسيق التعريب - وهو أحد المؤسسات المتفرعة عنها – بادية للعيان، وتزداد أهمية التقرير إذا علمنا أنه أنجز من طرف مؤسسة لغوية أخرى هي معهد التعريب وعلى يد مديرها أنذاك الدكتور عبد القادر الفاسي الفهري وقد ساعده كل من الدكتور محمد غنايم والأستاذة نادية العميري كما هو مثبت على غلاف التقرير. ولتكتمل الصورة ويوضع التقرير في سياقه التاريخي فهو يعد ورقة عمل أعدت لتعرض على مجلس وزراء الثقافة العرب الذي كان مزمعا عقده في شهر أبريل 2004.

ما يهمنا في التقرير ليس هو علاقة اللغة بالتنمية فهذه حقيقة لا نحتاج التدليل عليها. ولكن الذي يهمنا كيف غطى التقرير جوانب العلاقة ؟ وما هي المجالات التنموية التي تدخل في دائرة اهتمام اللغة واللغويين ؟ وما هي عوائق التنمية العربية ؟ ونخص بالتحليل والمناقشة المعوقات اللغوية تحديدا. وذلك بالإجابة على التساؤلات الآتية : ما هي نقاط القوة التي يمكن أن تتشكل في تقاطع اللغة بالهوية واللغة بالدين واللغة بالاقتصاد واللغة بالمعلوميات واللغة بالسياسة واللغة بالتعليم ...

وقبل الدخول في محتوى التقرير والإجابة على التساؤلات السابقة لا بد من الإشارة إلى أن الكون في ظل العولمة أصبح بيئة لغوية تتنافس فيها اللغات القوية وتتصارع من أجل الهيمنة والبقاء والسيطرة،

وأصبحت المقولات التقليدية من مثل "اللغة وعاء الفكر" أو "اللغة أداة للتواصل" مقولات سطحية لا تعبر عن حقيقة اللغة، لأن اللغة في جوهرها هي ما به يتحقق الإنسان لا ما به يتواصل فقط، هي ما به وعبره تتحقق التنشئة الاجتماعية للفرد وهيكلة وجوده الاجتماعي، واللغة هي القانون الذي تفرضه الجماعة على الفرد وهي الشرط الذي تضعه الجماعة (الأمة) على الفرد كي يحصل على هوية اجتماعية معترف بها.

ولقد ازدادت أهمية اللغة في الآونة الأخيرة خاصة عندما اتجه الاستثمار إلى الموارد البشرية كأساس يوجه الاستثمار في باقي القطاعات، وارتكز هذا النوع من الاستثمار على إيجاد مجتمع المعرفة، الذي يمتلك المعلومات ويوظفها في الإنتاج والخدمات والإدارة والاقتصاد وكل النشاطات الإنسانية، وتقوم اللغة بالوظيفة الأساس والمحورية في خلق مجتمع المعرفة وذلك لأن:

_ تبادل المعلومات ونقل المعرفة يتم بواسطة اللغة.

_ التعليم من أجل اكتساب المعرفة يتم باللغة.

وبمفهوم المخالفة فإنه لا يمكن لمجتمع ما أن يحقق نموا أو تنمية وهو يستعير لغة غيره، فهو كمن يبني لغيره. وهذا الاتجاه تمثله في بلداننا العربية كل المؤلفات المؤلفة باللغات الأجنبية. ولا يمكن كذلك لمجتمع أن يحقق تنمية وهو يحمل إعاقة لغوية وذلكم هو حال المجتمع العربي، فالدراسات الوصفية التشخيصية لمشكلات اللغة العربية تؤكد حجم المعاناة الواقعية التي تعاني منها العربية عند أهل التخصص، فكيف بنا إن نظرنا إلى وضع اللغة في كليات العلوم، وكيف بنا إن نظرنا إلى وضعها في الإدارة والمجتمع والاقتصاد والإعلام والشارع العام.

وضع استعمال اللغة العربية في الوطن العربي:

للحديث عن وضع اللغة العربية في الوقت الحاضر واستجلاء قضاياه البارزة لا بد من التذكير ببعض الحقائق المتصلة بماضي هذه اللغة وتاريخها.

➢ فاللسان العربي يعتبر أول لسان يعمر طويلا حوالي سبعة عشر قرنا، محتفظا بكل مقوماته وبنيانه الداخلي وهذا عامل قوة للعرب لمراكمة المعلومات، لأن الخروج من لسان إلى لسان كسقوط الأنظمة والدول يدعو إلى البدء من جديد في سلم الحضارة.

➢ إن اللغة العربية قد ارتبطت في تطورها وتقدمها ولحظات قوتها بالعقيدة والدين الإسلامي، فهي لغة القرآن والسنة ولذلك ارتبط رصيدها الثقافي والفكري أو معظمه بهذه الأصول وما يتفرع عنها، ومن هنا اكتسبت اللغة العربية عند الخاصة والعامة صبغة القداسة والتوقير.

➢ اللغة العربية كسائر اللغات كائن اجتماعي حي تسري عليه سنن التطور والتجديد ويتوقف عليها بقاؤه. وقد تبين لعلماء اللغة في صدر الإسلام هذه الطبيعة النسبية للغة في مقابل إطلاقية النص القرآني فلم يترددوا في إصلاح اللغة العربية وتطويرها بما أقدموا عليه من تأصيل قواعد النحو والصرف والإعراب ووضع أنظمة الخط كتطوير الخط والشكل والتنقيط والمد والوصل والإمالة، وصناعة المعاجم والرسائل الموضوعاتية من غير أن ينكر عليهم أحد هذا الصنيع1 .

يشهد تاريخ اللغة العربية أهم الهجمات التي تعرضت لها هذه اللغة وعلى أهم المحطات التي كانت تصارع فيها من أجل البقاء، وكانت أولاها ضد اللحن فقام اللغويون والنحاة بعمل جليل يهدف إلى تحصين اللسان بالنسبة لأبناء العرب وتحصيله بالنسبة لغيرهم. وفي صدر الدولة العباسية واجهت اللغة العربية تحديا آخر هو تحدي الشعوبية فخرجت منه منتصرة بجهود الغيورين والحاملين سماحة الإسلام. وجاء عصر الركود فأثر سلبا على العربية لزمن ليس بالقصير، يكاد يمتد إلى دولة الأتراك حيث استغل هذا الضعف لتدخل العربية في مواجهة العصبية التركية، خرجت منها بتبني الحرف اللاتيني في كتابة التركية عوض الحرف العربي فخسرت العربية جزءا من جغرافيتها، ثم جاءت الفترة الاستعمارية فكانت المقاومة اللغوية تقف في الجبهات مثلما تقف المقاومة العسكرية، فهذا عبد الحميد بن باديس يرفع شعاره التاريخي في مواجهة الاستعمار "وهو الإسلام ديننا والعربية لغتنا والجزائر وطننا" 2، فيقرن القومية بالدين وبالقطرية في الدعوة إلى التحرر والاستقلال. وكان هدف المخطط الاستعماري هو القضاء على العربية، فهذا اليوطي يقول في شأن اللغة : « من الناحية اللغوية علينا أن نعمل على الانتقال مباشرة من البربرية إلى الفرنسية. .... فليس علينا أن نعلم العربية للسكان الذين امتنعوا دائما عن تعلمها. إن العربية عامل من عوامل نشر الإسلام، لأن هذه اللغة يتم تعلمها بواسطة القرآن، بينما تقضي مصلحتنا أن نطور البربر خارج إطار الإسلام.»3 .

والنص الذي قدمنا يشهر سلاحا ذو حدين فإذا كان هدف السلطات الاستعمارية هو إلحاق مستعمراتها لغويا أي فرنسة المحميات الفرنسية فهو يتخذ لذلك طريقا يجنبه الخسائر فيفصل بين العربية واللهجات المحلية وكذا العاميات، فتم الفصل في شمال إفريقيا بين العنصر العربي والعنصر البربري4 ، ومن تم تفكيك عرى المجتمع ليفسح المجال أمام سياسة المستعمر ويسهل عليه الانقضاض على الخصم.

فهذا إذن واقع اللغة العربية المرير حتى زمن الاستعمار، وبعد الاستقلال تم التخطيط لما يسمى بالتعدد اللغوي في البلدان العربية والذي كانت معالجته إلى حدود منتصف القرن الماضي من باب العفوية

---

[1]- قضايا استعمال العربية في المغرب، ص 20

[2]- حليم بركات المجتمع العربي المعاصر بحث استطلاعي ص 33

[3]- الودغيري الفرنكفونية والسياسة اللغوية ص 86 و الحسن مادي السياسة التعليمية بالمغرب، ص 22

[4] -الجابري التعليم في المغرب العربي ص 22 نقلا عن لحسن مادي ص 24

تحكمها العادة والعرف والاعتباطية فأصبحت معالجة الملف اللغوي من بين ملفات الشأن العام التي يفصل فيها السياسي قبل العالم، وحتى اللغوي الذي يتصدى للملف إنما يكون يهدف التموقع السياسي على حساب هذا الملف فكانت الحلول غالبا ما تكون تعسفية.

➢ تعايش اللغة العربية مع العاميات واللهجات المحلية في غالبية البلدان العربية كالكردية في العراق والأمازيغية في المغرب العربي، وهذا لا يتهدد اللغة العربية لأن هذه الثنائية - ما لم تأخذ طابعا سياسيا عرقيا - فهي تتكامل وظيفيا مع الفصحى ولا تدخل معها في تنافس مصيري.

➢ لكن الخطر الذي يتهدد العربية هو الازدواجية التي تعيشها مع اللغات الأجنبية سواء الفرنسية أو الإنجليزية حيث ينظر للغات الأجنبية على أنها لغات التقدم والرقي الثقافي والعلمي فتكون النتائج سلبية على هوية المتعلم وملكته وطاقاته التعبيرية[5] .

وفي تحليلنا لفقرات هذا التقرير لا بد من اعتباره بنية لغوية مغلقة حتى لا نتيه، وحتى نلتزم بكل ما ألزمنا به أنفسنا من خلال عنوان هذا العرض، فالتقرير يعتبر بنية متكاملة المحاور والأقسام والعناوين الفرعية التي هي بمثابة فصول ومباحث وفروع، دون أن نغفل بطبيعة الحال العنوان الأصلي للتقرير وما يوضح حيثياته وظروفه من هوامش تبين الغرض منه والجهات المسهمة في إنجازه إما طلبا أو إعدادا أو مدارسة أو تنفيذا لقراراته وتوصياته، مرورا بمقدمة التقرير ووصولا إلى خاتمته.

وقفة مع عنوان التقرير :

يحظى العنوان بأهمية كبيرة وعناية فائقة لأنه مكون نصي قد يعادل ما بعده وهو المدخل الأسلم لقراءة النص وحتى من معناه يكتسب قوته، فالعنوان هو عين البحث أي بمعنى نفسه وذاته وروحه، وهو هنا يأخذ وظيفة التوكيد المعنوي للنص، فالعنوان بهذا المعنى يساوي البحث لأنه هو مركزه، وهو الذي يختزل كل تفاصيله والجامع بين كلياته وجزئياته ويكتنزه اكتنازا، وله علاقة بكل الأبواب بكل الفصول بكل المطالب بكل المباحث بكل الفروع بكل الوحدات والمقاطع والمصطلحات والعناوين، بل إنه حاكم على البحث في ترتيبه وتقسيمه ومقدمته وخلاصاته وأفكاره الأساسية، إنه يتضمن بالقوة كل شيء في البحث مهما كان دقيقا وأي شيء خرج عن هذه الصورة فهو يثقل صلب الموضوع ومحله الهامش أو حقه الحذف 6، والعنوان هو عين البحث بمعنى الجارحة التي يبصر من خلالها كل ما يتضمنه البحث فهو هنا بمثابة المرآة التي تعكس ما يقع عليها من الإشكال فهو كذلك يعكس شكل البحث وهيأته وتفاصيله ولذلك قيل قديما : "عيناك أنم عليك من

---

[5]- الفاسي الفهري ملكة اللغة، قضايا استعمال اللغة العربية في المغرب، وانظر كذلك السغروشني في نفس العدد.

[6]-عبد المالك اعويش، خطوات منهجية في إعداد البحوث والعروض مشاركة في يوم دراسي خاص بالمناهج لطلاب كلية الشريعة أكادير.

لسانك"، ويماثله في الكتاب قولهم : "إن دفتي الكتاب تستر ما فيه فيكشفه العنوان". إذن ما الذي يكشفه عنوان التقرير :

"دعم اللغة العربية تعزيزا للهوية والتنمية المجتمعية".

كثيرا ما تكون العناوين قصيرة مكونة من كلمة أو كلمتين أو أكثر وكلما كان طويلا فهو يدل على تركيبة من عناصر شتى ومن تم تتعدد الكلمات المفتاح لقراءته كما هو الحال في العنوان الذي بين أيدينا :

من الناحية التركيبية فإن العنوان يحمل بعدا استراتيجيا تخطيطيا فهو يخطط لكيفية المحافظة على الهوية وكيفية تحقيق التنمية المجتمعية من وجهة نظر لغوية. فالشق الأول من العنوان دعم اللغة العربية يلعب دور الوسيلة والأداة والآلة ... لتحقيق نتيجة والوصول إلى غاية وتحصيل أهداف وهو ما يتجسد في الشق الثاني من العنوان : تعزيزا للهوية والتنمية المجتمعية فعلى قدر الدعم للغة العربية يكون تعزيز الهوية وتعزيز التنمية المجتمعية، وهذا ما يفسره المفعول لأجله "تعزيزا" الذي يرد في سياق النتيجة لسبب تكشف عنه كلمة "دعم" في الشق الأول من العنوان. فالعلاقة إذن سببية علية والسبب والعلة بينهما علاقة جدلية.

فالدعم إذن يولد التعزيز لكن دعم ماذا ؟ وتعزيز ماذا ؟ وأي دعم وأي تعزيز ؟

فإذا كان التعزيز يخص الهوية والتنمية الاجتماعية فإننا نتساءل لماذا لا يكون هذا التعزيز اقتصاديا أو سياسيا أو اجتماعيا أو ثقافيا أو علميا ... وهو الأقرب إلى الصواب في عقلية من ينظر إلى الهوية والتنمية بمنظور سطحي ظاهري لا عمق فيه.

وفي العنوان تظهر محورية اللغة في رسم الهوية وفي ذلك يقول الدكتور حليم بركات : «لا أعرف محاولة واحدة لتحديد الهوية العربية لم تدخل اللغة في صميم هذا التحديد رغم الاختلاف حول العناصر الأخرى» 7، ويظهر "العنوان" بشكل مواز مركزية اللغة في تحقيق التنمية المجتمعية، هذه التنمية التي لا بد للوصول إليها من خلق مجتمع المعرفة ولا بد لخلق مجتمع المعرفة من أداة لكسب المعلومة وإيصالها وتحليلها واستثمارها وتوظيفها بشكل إيجابي فعال تكون له مردودية نفعية خيرية، تلكم الأداة هي اللسان ولا تنمية بدون لسان أو بمن يحمل إعاقة لسانية، وصدق رب العزة عندما قال : (ضرب الله مثلا رجلين أحدهما أبكم لا يقدر على شيء وهو كل على مولاه أينما يوجهه لا يأتي بخير هل يستوي هو ومن يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم8). ونترك بقية التدليل على مركزية اللغة في التنمية إلى تفاصيلها في محاور وفقرات التقرير.

وقفة مع تقسيم مباحث التقرير وعناوينه الفرعية :

---

[7]-المجتمع المعاصر ص 34.

[8]-النحل آية 76.

تعتبر خطوة التقسيم من الخطوات المنهجية الهامة في إنجاز الأعمال العلمية. والقسمة الحاصرة لجزئيات الموضوع هو ما تطلبه الدقة العلمية في تناول الموضوعات وهيكلة أجزائها وتنظيم أبوابها وإحكام صياغة عناوينها وذلك بوضعها على شكل كليات تفي بتفاصيل عموم العنوان. وهكذا فقد جاء التقرير على شكل مقدمة وثلاث فصول وخاتمة تطرق من خلالها الدكتور الفاسي الفهري لمجالات التنمية اللغوية وقضايا اللغة عموما، يقول في تقسيمه للموضوع : « ففي الفقرة الأولى من الدراسة، أذكر ببعض عناصر قوة اللغة العربية التي تجعل منها رأسمالا رمزيا ومجتمعيا وحضاريا لا يمكن أن تخطئ أي إدارة لغوية في الاستثمار فيه، ناهيك عن تجاهل ما يطرح هذا التقصير من مشاكل قانونية وحقوقية وسياسية بل وأمنية. وفي الفقرة الثانية، أشخص بعض جوانب ومصادر العداء للغة العربية وأهمية الإفادة من التاريخ والتجارب الإنسانية في دحض المزاعم الزائفة وكذلك أهمية القرار السياسي في الفصل لصالح اللغة الوطنية الرسمية. وفي الفقرة الثالثة، أتطرق إلى بعض التدابير والخطط اللازم اتخاذها من أجل النهوض باللغة العربية بهدف تعزيز الهوية وخدمة مجتمع التنمية.9»

التأسيس المصطلحي لمفهوم التنمية في التقرير

إن المصطلح هو الطريق الأسلم والنهج الأحكم لفهم النص، لأن المصطلحات هي أبواب الولوج إلى النص، ولذلك فإننا – في هذه الفقرة – لا نقصد من خلال توسلنا بالمصطلح تحديد مفهومه أو الخوض في تعريفه لكننا سنقف على نسبة وروده في التقرير وصور وروده ومشتقاته وصفاته وعلاقاته وضمائمه لنكشف عن أهميته ومكانته عند أصحاب الشأن اللغوي.

وقد ورد لفظ التنمية عند الزمخشري في "أساس البلاغة" مستعملا في الحقيقة والمجاز، ومن مشتقاته نمى، ينمي، ينمو، ونام، وتنمية ونمو10، وقد تمت معالجته في المعاجم في مادة النون والميم والياء أي "ينمي" وقد يرد بالواو "ينمو"، يقول ابن فارس: «النون والميم والحرف المعتل أصل واحد11» ومداره على الارتفاع والزيادة يقول الشريف الجرجاني: «النمو هو ازدياد حجم الجسم بما ينضم إليه ويداخله»12 .

وقد جاء التقرير مليئا بالمصطلحات الدالة على التنمية سواء كانت بألفاظ من نفس المادة والجذر كالمشتقات أو بألفاظ تتفق معها في المعنى وتختلف في اللفظ كالمرادفات وقد نستفيد مفهوم التنمية من أضدادها ونمثل لها كالآتي:

تنمية، نمو، تنموية، النامية، التنمية، التنموية، النمو

---

[9]- التقرير ص 3.
[10]- انظر الزمخشري، أساس البلاغة، حرف النون.
[11]- معجم مقاييس اللغة باب النون والميم وما يثلثهما.
[12]- التعريفات حرف النون.

تطوير، تطور

المتقدمة، التقدم

أرقى ، الرقي

المردود، المردودية

تأهيل، التأهيل

الناتج، التفوق، الجودة، المواكبة، الثروة، النهوض، الاستثمار

الإعاقة، الضعف، التخلف، الفشل

وجاءت هذه الألفاظ مركبة في تراكيب إضافية ووصفية نحو:

تنمية المجتمع، تنمية مجتمعية، مجتمع التنمية، مسألة تنموية، مستوى التنمية، إعاقة نموه المعرفي، إعاقة نموه اللغوي، تنمية الثروة اللغوية، نمو اقتصادي

مردودية التعليم، المردود الكمي

أرقى اللغات، أرقى الدول، الرقي الحضاري، الرقي الاجتماعي

لغة عمل، لغة التواصل، لغة المعرفة، لغة الوحدة، لغة التنمية، لغة الاقتصاد، لغة التقنية...

هذه فقط مختارات من الألفاظ والتعابير الواردة في التقرير الدالة على التنمية، وإلا فإن دراسة إحصائية علمية ستكشف عن المزيد وستشبع انتظارات القارئ العربي الذي يرغب في معرفة الدور الحقيقي الذي تلعبه اللغة في أفق تقوية الارتباط معها وعدم القبول بلغة أجنبية بديلا عنها ورفض الازدواجية التي تجعل العربية لغة رسمية شكليا فقط وتحصر استعمالها في الدين والأدب أو تعليم العلوم الإنسانية والاجتماعية في أحسن الأحوال13، وتضعف حضورها في التعليم العلمي والتقني والإدارة والصفقات الكبرى والقرارات الحساسة والاتفاقيات والمعاهدات وما إلى ذلك.

اللغة و مجالات التنمية

إن اللغة هي وسيلة الحركة الإنسانية كلها، في المجال العلمي والسياسي والثقافي والإعلامي والاجتماعي والتربوي. فاللغة وعاء ذلك كله ووسيلة ذلك كله، وإذا تراجعت اللغة توقفت الحركة الإنسانية وانقطع الاتصال والتواصل والتفاهم ذلك أن اللغة هي من أهم وأدق المواصلات وأوعية المعلومات وتواصل الأجيال14. وإذا كان بإمكان المرء أن يتصور مجتمعا معاصرا دون أنظمة الرموز اللغوية المتطورة فإنه لا يتخيله خاليا من المطابع والمطبوعات ووسائل الإعلام والهاتف والانترنيت ومن المدارس والجامعات

---

[13]-التقرير ص 10.

[14]- انظرعمر عبيد حسنة تقديم كتاب الأمة 101 اللغة وبناء الذات ص8

ومراكز البحوث ومن الأبناك والأوراق المالية ومن المواصلات والعلوم بمختلف تخصصاتها ... فتراكم التجارب والمعارف ما كان ليتم إلا بفضل اللغة ومن ثم فإن تقدم الإنسان في جميع جوانب الحياة شاهد على تقدم اللغة. وهذا ما دفع اللغوي الشهير اندرسون إلى اعتبار اللغة الأساس الصلد الذي تقوم عليه قصة الأمة15 .

اللغة والدين

نقصد بالدين كل العلوم والممارسات التي لها علاقة بالعلوم الشرعية، و في هذا الإطار يقول ابن تيمية : «إن اعتبار اللغة يؤثر في العقل والخلق والدين تأثيرا قويا بينا ويؤثر أيضا في مشابهة صدر هذه الأمة من الصحابة والتابعين، ومشابهتهم تزيد العقل والدين والخلق»16، ولقد كرم الله تعالى اللغة العربية ورفعها إلى مقام الشرف الأعلى حين أنزل بها خاتمة الرسالات، واتفقت أقوال العلماء في تصنيف اللغة وعلومها مع علوم الشريعة وأنزلوها منزلة الفقه والأصول والتفسير17، واعتبروا الاشتغال بها من فروض الكفاية وقد تصل إلى حد الوجوب على الفقيه، يقول ابن جني : «فمطلوب من الفقيه شرعا أن يعلم العربية لأنها وسيلة واجبة لتأمين الاعتقادات وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب ولأن أكثر من ضل من أهل الشريعة عن القصد فيها مرده إلى ضعفه في هذه اللغة الكريمة18». ومنهم من ذهب إلى أن العلم هو الدين كما قال عمرو بن العلاء "لعلم العربية هو الدين بعينه19" .

وهذا ما جعل اللغة العربية ذات رمزية وقدسية بالنسبة لما يقرب من مليار وربع المليار مسلم بها يقرأ القرآن ويذكر الله وحتى لو ترجمت عبارات الله أكبر والفاتحة فلن تبين بيان لسان القرآن20 .

اللغة في المجال السياسي

نتبنى قولة الدكتور عبد الله النفيسي فنقول : «يخطئ من يظن أن اللغة وعلومها هي من شواغل اللغويين والنحاة ولا علاقة لها بالحياة الاجتماعية والسياسية21»، لكننا نلتمس له العذر في الخطأ لأن الدراسات التي تبحث في علاقة اللغة العربية بالبعد السياسي والاجتماعي والاقتصادي نادرة، رغم أن

---

[15]-اللغة والهوية عالم المعرفة ص 8 عدد 342 سنة 2007

[16]-اللغة وبناء الذات ص 10

[17]- بودراع، مصطلح اللسان في العلوم الشرعية، ندوة الدراسة المصطلحية 1996

[18]-**الخصائص 245/3**

[19]-**بودراع م. س**

[20]-**التقرير ص 3**

[21]-اللغة العربية أسئلة التطور الذاتي والمستقبلي ص 57.

الخطاب اللغوي يعج بمئات النصوص التي تطرقت لقضايا واقعها بالتحليل والمعالجة بدءا من الأشعار الجاهلية التي عالجت موضوعات الصلح والحرب والتفرقة ومع ظهور الإسلام برزت نصوص تهاجم أعداء الإسلام ونصوص تناولت الخلافة والصراعات المذهبية وأصول الحكم22 ...

وعلى العموم فإن علاقة اللغة بمنظومة السياسة مبنية على المصلحة فاللغة أداة في أيدي الساسة قد تستعمل : كسلاح أو كردع،احتواء أو استعباد، وفاق أو صراع، بناء أو هدم، جسر أو عائق23، فاللغة إذن مصدر للقوة وهذه حقيقة أدركها الساسة والحكام منذ القديم من فراعنة ويونان وقياصرة وحتى المجالس البلدية والبرلمانية وقد برع الخطاب السياسي في استخدام أسلحة اللغة فهو يبطن أكثر مما يظهر ويستخدم الكلمات الأخاذة ليلهب بها مشاعر الجماهير ويخمد نار سخطهم.

ونستطيع أيضا أن نثبت العلاقة فيما كتبه رولان بارت عن نشأة البلاغة التي ترجع في أصولها الأولى إلى المحاكمات حول الملكية حيث قام طاغيتان من صقلية جيلون (Gelon) وهيرون (Heron) حوالي 485 ق.م يتهجير السكان ونقلهم وبمصادرة للملكية من أجل إعمار سيراكوزة وتمليك المرتزقة، وبعد أن أطاحت بهما انتفاضة ديموقراطية، وأريدت العودة إلى الوضع السابق حدثت نزاعات قضائية لا تحصى ....24. وكانت السبب في نشأة البلاغة.

ومن الشيق ملاحظة أن فن القول مرتبط في أصوله بالمطالبة بالملكية، بل إنه يساهم في تثبيت الأوضاع كما يساهم في تغييرها أو إسداء النصائح أو إيصال المعلومات أو الإقناع برأي أو تجييش جيش أو التعبير عن موقف أو إدلاء بشهادة...

ونأسف عند ما نجد الساسة العرب لا يعتزون بالعربية ولا يولونها العناية المستحقة رغم أنها لغة التكامل الاقتصادي والسياسي لهذه الأمة25 ، ولغة الإعلام النافذة في الصحف والمجلات والإذاعات والقنوات الفضائية وكل هذه الوسائل أظهرت نجاعتها في ململة الواقع العربي وتمكين المواطن العربي من حقه في المعلومة مثل الجزيرة وأرت وقناة أبو ظبي... ونأسف أيضا لاستصدار وثيقة تنظيم الإعلام العربي من طرف وزراء الإعلام العرب. ودور وزراء الداخلية إنما ينبني في أساسه على تحديد المعلومة المرخص لها والمعلومة المحرمة ولكون مصادر الإجرام والإرهاب غالبا ما تنسب إلى التضييق على الفرد في حقوقه بما في ذلك حقه في هويته وحقوقه اللغوية26.

---

[22]- انظر عباس الجراري، في الشعر السياسي.

[23]-نبيل علي، الفجوة الرقمية 307.

[24]-البلاغة القديمة ص 38.

[25]-تقرير ص 5.

[26]- التقرير ص 7.

اللغة والاقتصاد

لقد أصبحت المعرفة قوة دافعة ومحركا أوليا للاقتصاد الحديث : فهي تعد من أهم وسائل زيادة إنتاجية العمال والمصانع والحقول وهذه حقيقة يمكن الوصول إليها بكل اللغات، لكن إذا تمكن المواطن العربي من إتقان لغته واستعمالها فإنه يستطيع أن يبدع ويشارك في إثراء بلده وقد أصبح الآن واضحا للعيان مدى الارتباط القوي بين اللغة القومية وصناعة التحرر والاستقلال والتقدم الصناعي والاقتصادي والتبادل التجاري، يقول الفاسي الفهري : «إن تعميم العربية باعتبارها لغة التواصل الملائمة لدى القوى العاملة التي ستمكن من الزيادة في سرعة التنفيذ والإنتاج بل إن تعزيز العربية في الإدارة والاقتصاد والاتصال والتكنولوجيا شرط ضروري للنمو الاقتصادي والتنمية الاجتماعية، وإن استعمال العربية بصورة ملائمة في تقنيات الإعلام الجديدة ستمكن من اتساع مجالها ودمقرطتها27».

ومن خلال رصد التقرير لأوضاع الاقتصاد العربي فإن هذا الأخير يتوفر على مؤهلات قوية وفرص للإقلاع لكنه لا يحسن استثمارها. فالعرب يمثلون قوة بشرية وسوقا عربية مشتركة وله ثروة طبيعية وموقع جغرافي استراتيجي إلا أن نسبة النمو ضعيفة ودخل الفرد لم يتغير تقريبا خلال العقود الخمسة الماضية والصناعات العربية تقليدية وليست صناعة قائمة على المعرفة ومرد هذا الوضع بالأساس إلى عدم تطوير اقتصاد المعرفة القائم على اللغة أساسا28 ، إذ الأشياء لا تملك قيمة في نفسها بل بما تكتسبه من قيمة رمزية عند الجماعة البشرية التي تتداولها وقيمتها مستمدة من قيمة جماعتها ومثال ذلك الأوراق المالية وحتى نفس السلع تجد سلعة الدول الضعيفة بخسة وسلعة الدول المتقدمة باهضة. وقد أسهب المفكر الغربي فلوريان كولماس في إيضاح علاقة اللغة بالاقتصاد وتحدث عن الأهمية الاقتصادية للغة وطرق تفاعل اللغة مع الاقتصاد، وكيف ترجع اللغة الأقوى وكذا اللغة الموحدة على أهلها بالثراء.29

كانت هذه إذن أهم المجالات التي تبرز فيها مكانة التنمية في تصورات اللغويين، ونعتقد أنها غير وافية، لأن اللغة هي رافعة التنمية وجسر العبور إليها وهناك مجالات أخرى كميدان التعليم والإعلام والصناعة والفلاحة والبيئة وقد أشار إليها التقرير إشارات خفيفة لا تشبع رغبة من يتطلع إلى المزيد.

المعوقات اللغوية التي تواجه التنمية

نستطيع الجزم بأن هذه المعوقات لا ترجع إلى جوهر اللغة ولا إلى بنيتها بقدر ما تعود إلى ذهنية القائمين عليها. ونستطيع أن نصنف هذه المعوقات إلى صنفين :

---

[27]-الفاسي، اللغة والبيئة منشورات الزمن ص 72.

[28]-التقرير ص 5.

[29]-انظر كتاب فلوريان كولماس، اللغة والاقتصاد، ترجمة أحمد عوض، عالم المعرفة 263.

1- صنف يتعلق بالضعف في تطوير المنظومة اللغوية كصناعة المعاجم وتيسير قواعد النحو والصرف وتوحيد المصطلح ودعم الترجمة والتأليف بالعربية وإصلاح برامج التعليم.

2- وصنف يتعلق بمعوقات ذات مصدر غير لغوي :

التعددية اللغوية التي تصل إلى حد التصارع كما هو الحال بين العربية واللغات الأجنبية في المواقع الإدارية والتعليم العلمي، ويتخذ طابعا تنافسيا مع اللهجات المحلية كالأمازيغية مثلا والعامية وهذا يحتاج إلى قرار سياسي وسياسة لغوية رشيدة تمكن اللغة الرسمية وظيفيا وعمليا في مجالات الحياة الاجتماعية كالتعليم والإعلام والمعلوميات.

عدم الاستثمار في اللغة العربية

عدم تعميم التعليم الأولي باللغة الرسمية

عدم تكافؤ الفرص في الشغل بالنسبة للمتعلم بالعربية مع غيره الذي تعلم باللغة الأجنبية

تقصير المجتمع في حماية اللغة

ضعف استعمال اللغة في عالم المعلوميات والانترنيت

بعض المقترحات للنهوض باللغة

يقترح التقرير في فقرته الثالثة مجموعة من الحلول لتجاوز الأوضاع التي تعيشها اللغة العربية حتى تدخل في دورة التنمية والحضارة ومنها :

أن تتحمل الدولة مسؤوليتها وكذا المجتمع في تأهيل اللغة في مختلف ميادين المعرفة والثقافة والحياة العامة والأنشطة الفنية والإعلامية والإشهارية .

اتخاذ الحكام للتدابير التشريعية الالزمة والقرارات الحاسمة والملزمة باستخدام العربية في كل مجالات التواصل والتعليم الأساسية ورسم الخطط التنفيذية والإجرائية لبلورة هذا الاختيار.

وضع حد للسياسات المزدوجة القائمة على سياسة صريحة رسمية (في النصوص التشريعية)، وسياسة ممارسة في الواقع قائمة على الاستعمال الفعلي للغة الأجنبية الذي يكاد يكون أحاديا في المعاملات الاقتصادية أو الإدارية أو التعليم العلمي والتقني.

تبني سياسة لغوية تنظر إلى اللغة على أنها مسألة هوية وخصوصية ينبغي الذود عنها لأسباب ثقافية وحضارية وتاريخية مرتبطة بالتنمية المعرفية والاقتصادية.

دعم التعريب من الروض إلى الجامعة وتعميم التعليم بالعربية.

ضرورة تنمية اللغة العربية في ارتباط بالتنمية الاقتصادية وتنمية مجتمع المعرفة بما لا يتنافى وإتقان اللغات الأجنبية.

وأضاف التقرير سلسلة من المقترحات تحت عنوان "الخطط اللغوية ووسائل النهوض" منها ما يهتم بالتشريع ومنها ما يتعلق بالاقتصاد والمعلوميات وتوفير الحماية والدعم للغة العربية.

كما اهتم التقرير بتطوير التعليم بتوخي الجودة وتعزيز التعليم المبكر باللغة العربية وتأهيل المعلم العربي وإحداث هيأة قومية عربية مستقلة لضمان جودة التعليم العربي.

ويخلص التقرير في خاتمته إلى أن اللغة العربية حظيت بفرصة تاريخية تحولت على إثرها من لغة تواصل وأدب لقلة من الأفراد إلى لغة علم لمئات الملايين من العرب والمسلمين وكونت حولها هوية قومية اختلفت أجناسها وأديانها وتجاربها الاقتصادية لم يوحدها شمولا إلا اللسان الذي انبعثت منه عناصر أخرى للوحدة، وليس في المنظور القريب أو البعيد أي فرصة للغة أخرى يمكن أن توحد هذا العدد من البشر.

ولقد أتيحت الفرصة للغة العربية أن تصبح لغة علم وتقنية بمعجزة القرآن والإسلام ولن تتاح للغة أخرى هذه الفرصة كذلك وأي محاولة لتغيير اللغة العربية بلغة أجنبية سيبوء بالفشل ويؤدي إلى هز الاستقرار والأمن في المنطقة العربية والإسلامية لما للغة من مكانة عند المواطن العربي والمسلم30.

خاتــمة :

خير ما نختم به هو أن اللغة العربية لن تتقدم إلا بنبض الشارع المتكلم بها والغيور عليها والذي يعتبرها رمزا للهوية التي ينبغي اعتبارها – الجزء الأهم – في أي دراسة أكاديمية ميدانية تجري حول اللغة إذا ما أريد للنظرية اللغوية أن تتطور31 ، وتصبح فاعلة في تطوير المجتمع لما يوجد بين الاثنين من تكامل يصل إلى درجة الانعكاس كما ذهب إلى ذلك كل من ابن حزم وابن خلدون عندما نص كل منهما بأن قوة اللغة في قوة أصلها وغلبتها غلبة أهلها، يقول الأول: « إن اللغة يسقط أكثرها ويبطل بسقوط دولة أهلها ودخول غيرهم عليهم في مساكنهم أو بنقلهم عن ديارهم واختلاطهم بغيرهم. فإنما يقيد لغة الأمة علومها وأخبارها وقوة دولتها ونشاط أهلها وفراغهم وأما من تلفت دولتهم وغاب عليهم عدوهم، واشتغلوا بالخوف والحاجة والذل وخدمة أعدائهم فمضمون منهم موت الخواطر، وربما كان ذلك سببا لذهاب لغتهم، ونسيان أنسابهم وأخبارهم وبيود علومهم. هذا موجود بالمشاهدة ومعلوم بالعقل ضرورة32».

30- التقرير ص26.

31- اللغة والهوية ص8

32- انظر الأحكام في أصول الأحكام 1/31. واللغة لمحمد سبيلا ص 48 ونظرات في اللغة عند ابن حزم لسعيد الأفغاني ط 2 ص 27.

ويقول ابن خلدون : «اعلم أن لغات أهل الأمصار إنما تكون بلسان الأمة أو الجيل الغالبين عليها أو المختطين لها ولذلك كانت لغات الأمصار الإسلامية كلها بالمشرق والمغرب لهذا العهد عربية وإن كان اللسان العربي المضري قد فسدت ملكته وتغير إعرابه والسبب في ذلك ما وقع للدولة الإسلامية من الغلب على الأمم. والدين والملة صورة للوجود وللملك وكلها مواد له، والصورة مقدمة على المادة، والدين إنما يستفاد من الشريعة وهي بلسان العرب لما أن النبي ❐ عربي فوجب هجر ما سوى اللسان العربي من الألسن في جميع ممالكها33...».

إن هذه الترسانة من التقارير والقوانين تحتاج إلى تفعيل، وإن العربية لا تستحق منا هذا الجفاء وهذا التهميش والسكوت على التكالب الخارجي، فهي تحتاج الآن إلى أعمال وقفية من طرف اللغويين أولا بتضحياتهم، ومن طرف رجال الأعمال ثانيا بأموالهم ومن الحكام وأصحاب القرار ثالثا بدعمهم وتشجيعهم.

[33]-انظر المقدمة ،دار إحياء الثراث العربي، بيروت ص 379.، ومحمد سبيلا، اللغة، ص 48.

لائحـــة المراجـع

1. أحمد ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، دار الكتب العلمية، ط1، 1999.
2. ابن جني، الخصائص، تحقيق محمد علي النجار، دار الكتاب العربي. بدون تاريخ.
3. جون جوزيف، اللغة والهوية، ترجمة عبد النور خراقي، عالم المعرفة عدد 342 سنة 2007.
4. الحسن مادي، السياسة التعليمية بالمغرب ورهانات المستقبل، منشورات مجلة علوم التربية – 4- ط 1، 1999.
5. حليم بركات، المجتمع العربي المعاصر بحث استطلاعي، مركز دراسات الوحدة العربية، ط 2، 1985.
6. رولان بارت، البلاغة القديمة، ترجمة عبد الكبير الشرقاوي، نشر الفنك 1984.
7. الزمخشري، أساس البلاغة، دار صادر، 1979.
8. سعيد الأفغاني، نظرات في اللغة عند ابن حزم، دار الفكر ط 2، 1969.
9. الشريف الجرجاني، التعريفات، مؤسسة الرسالة ناشرون، ط1، 2006.
10. عباس الجراري، في الشعر السياسي، دار الثقافة، ط 2، 1982.
11. عبد الرحمان بودراع، مصطلح اللسان في العلوم الشرعية ندوة الدراسة المصطلحية 1996.
12. عبد العالي الودغيري، الفرنكفونية والسياسة اللغوية والتعليمية، ص 1، 1993.
13. عبد العالي الودغيري، اللغة والدين والهوية، ط 2000.
14. عبد القادر الفاسي الفهري، دعم اللغة العربية، تقرير للألسكو، مارس 2004.
15. عبد القادر الفاسي الفهري،اللغة والبيئة منشورات الزمن، كتاب 38.
16. عمر عبيد حسنة، اللغة وبناء الذات، تقديم كتاب الأمة، ع 101، سنة 1425 هـ.
17. فلوريان كولماس، اللغة والاقتصاد، ترجمة أحمد عوض، عالم المعرفة 263.

18.قضايا استعمال العربية في المغرب، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، سلسلة الندوات، نونبر 1993.

19.اللغة العربية أسئلة التطور الذاتي والمستقبل، مركز دراسات الوحدة العربية ط 1، 2005 .

20.محمد سبيلا، اللغة، دار توبقال للنشر، سلسلة دفاتر فلسفية، ط 1994.

21.محمد كامل حسين، اللغة والعلوم، مجلة مجمع اللغة العربية، القاهرة، ع 12.

22.نبيل علي، الثقافة العربية وعصر المعلومات، عالم المعرفة، ع 276.

23.نبيل علي، الفجوة الرقمية، عالم المعرفة، غشت 2005.

24.وجيه حمادة عبد الرحمان، اللغة العربية والحضارة الإنسانية، مجلة اللسان العربي، ع 35، 1991.